

رياضة « الطلبة » في الشعر الأندلسي

في عصر بني الأحمر

الدكتور صلاح جرّار / الجامعة الأردنية

مقدمة :

دعاني إلى إعداد هذه الدراسة داعيان : أولهما : الكشف عن رياضة أندلسية شاعت في غرناطة في عصر بني الأحمر (٦٣٥ هـ - ٨٩٧ هـ / ١٢٣٨ م - ١٤٩٢ م) لم يرد لها وصف إلا في عددٍ من قصائد الشعراء الأندلسيين ، ولم يصفها أيٌّ من المؤرخين القدماء ، ولم يدرسها أيٌّ من الدارسين المحدثين .

وثانيهما : أن الدارسين الذين درسوا الشعر في زمن بني الأحمر ، أو درسوا شعر أي من الشعراء الذين وصفوا هذه الرياضة ، تجنبوا التعرّض للأبيات التي تصف تلك الرياضة ، لأن أحداً من هؤلاء الدارسين لا يستطيع أن يعرف صفات تلك الرياضة من خلال قصيدة بمفردها ، إذ لا بد من جمع مختلف القصائد التي وصفت الرياضة وإخضاعها للمقارنة من أجل استجلاء صورة هذه الرياضة ، وهو ما تهدف إليه هذه الدراسة . وأما من استوقفته هذه الرياضة من الباحثين فقد وقف حائراً بين يديها ، كما فعل إميليو غارسيا غومس في كتابه « مع شعراء الأندلس والمنتبّي »^(١) حين قال « إن هذه اللعبة غامضة » ؛ وكما فعل محقق « أزهار الرياض » في تعريفه « الطلبة » بأنها بعض آلات الحرب^(٢) ، معتمداً في ذلك على معجم دوزي .

١ - غارسيا غومس ، إميليو ، مع شعراء الأندلس والمنتبّي ، تعريب د . الطاهر أحمد مكّي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

٢ - المقري ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م) ، أزهار الرياض في أخبار عياض (٥ ج) ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات ، الرباط ، ١٣٩٨ م هـ / ١٩٧٨ م ، (٢ / ٦٠ الحاشية) .

وقد عثرتُ على ثمانِي مقطوعات شعريّة متفرّقة في وصف هذه الرياضة ، وردت كل مقطوعة منها ضمن قصيدة مطوّلة في وصف الاحتفالات التي كان يقيمها ملوك بني الأحمر في المناسبات الوطنية والاجتماعية والدينية المختلفة في غرناطة ، وهذه القصائد الخمسة من شعراء غرناطة في عصر بني الأحمر . وقد جعلتُ هذه المقطوعات الثماني في ملحق في آخر هذه الدراسة ، وجعلتُ لكل مقطوعة رقماً ، وأشرتُ في أثناء الدراسة إلى كل مقطوعة برقمها .

وقد اختلفت المصادر الأدبية في اسم هذه الرياضة فبعضهم أطلق عليها اسم « الطَّلَبَة » وبعضهم سماها « الطَّبَلَة » بتقديم الباء على اللام ، وقد آثرتُ إرجاء البحث في اسمها إلى حين الانتهاء من التعرف على ملامحها وأصولها ومبادئها كما وردت في المقطوعات المذكورة ، لأن معرفة مبادئ هذه الرياضة تساعد على معرفة سبب تسميتها . وتناول هذه الدراسة ، فضلاً عن ذلك صلة هذه الرياضة بغيرها من أنواع الرياضة السابقة واللاحقة .

مبادئ اللعب :

العناصر الأساسية في هذه الرياضة هي : الهدف ، والرامي ، وما يُقذَف به الهدف . ويستطيع الباحث من خلال تأمل المقطوعات الشعرية التي تصف هذه الرياضة ومقارنتها بعضها ببعض ، أن يستخلص صورة للهدف وطريقة نصبه في الهواء ، وصفات العصيّ أو السهام التي كان يُقذَفُ بها ، وهيئة اللاعب الذي كان يقذف الهدف بالعصيّ ، وشروط الفوز والخسارة ، إلى غير ذلك مما يتصل بمبادئ اللعب وأصوله .

الهدف :

يشكل الهدف أساس هذه الرياضة ، وتتجه أكثر الأبيات التي تصف هذه الرياضة إلى وصف الهدف ، فمثلاً كان هذا الهدف محط أنظار الرماة والمتفرجين

ومحط رحال العصي التي تُقَذَفُ نحوه ، فكذلك نال النصيب الأوفر من اهتمام الشعراء الذين وصفوا هذه اللعبة ؛ فأشاروا إلى المادة التي صُنِعَ منها هذا الهدف ، وطريقة إعداده ، ثم الصورة التي يصبح عليها بعد إطلاقه في الفضاء .

وتتفق القصائد التي تصف هذا الهدف ، على أنه هدفٌ خشبيٌّ يُجعل في مكان مرتفع جداً من الفضاء ، وهذا ما نصّ عليه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة ونقله عنه المقرئ في نفح الطيب ، حيث يقول ابن الخطيب في التقديم لإحدى قصائده : « وقولي في امتداح سلطانني لما احتفل لإعذار ولده ، واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجو المسمى بالطليلة ... »^(١) .

ويشير ابن الخطيب إلى أنها مصنوعة من الخشب حيث يقول^(٢) :

وطاعنة نحر السُّكَّاء أعانها على الكون عِرْقٌ واشجٌ ولحي سَبَطُ
(والسُّكَّاء : الجوّ ، والعرق الواشج : المتداخل المتشابك الملتفّ ، والسَّبَطُ :
نقيض الجعد)^(٣) .

فالهدف ، على ذلك ، مأخوذٌ من الشجر من ساقٍ قوية ملتفة ذات لحاء أملس ، ليساعدها ذلك على الانطلاق في الفضاء عند إرسالها فيه .

١ - لسان الدين بن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلماني (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م) ، الإحاطة في أخبار غرناطة (٤ ج) ، حققه محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م - ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ٤/٤٧٩ ؛ المقرئ ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٨ ج) ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ٤٥٩/٦ .

٢ - انظر المقطوعة رقم (١) .

٣ - ابن منظور : لسان العرب .

ويشير ابن زمرك الصريحى إلى هذا الأصل الخشبي للهدف ، حيث يقول (١) :
وقد أَرْضَعَتْ تُدَيَّ الغمائم قبلها بحجر رياض كنّ فيه نواشيا
فلما أُيِّنَتْ عن قرارة أصلها أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا
ويقول في قصيدة أخرى مشيراً إلى صلة الرحم بين الهدف والسهام التي تطلق عليه (٢) :

تراوغها طوراً وطوراً تضيفها فسام لأعلى مرتقاها ونازلُ
وبالأمس كانت بعض أغصان دوحها فنقلها عنها على الرغم ناقِلُ
فحنّت إلى أوطانها وتساقت تعاود مسراها بها وتواصلُ
ويقول ابن زمرك في المعنى ذاته في مخمسة له (٣) :

وقد قذفتها للعصي حواصبُ قد انتشرت في الجوّ منها ذوائبُ
تزاورَ منها في الفضاء حبايبُ فبينهما من قبل ذاك مناسيبُ
لأنّهما في الروض قبل تولّدا
بناتٌ لأمٍ قد حينَ برّوحها دعاها الهوى من بعد كتم لبّوحها
فأقلامها تهوي لخطِ بلّوحها فبالأمس كانت بعض أغصانِ دوحها
فعادت إليها اليوم من بعد عودا

١ - المقطوعة رقم (٣) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٤) .

٣ - انظر المقطوعة رقم (٥) .

وهذه الصلة بين الهدف الخشبي وبين السهام التي تطلق عليه ، كما يبينها الشعراء تؤكد أن الهدف كان يؤخذ من ساق الشجرة بينما كانت السهام تؤخذ من الفروع الصغيرة ، فالعلاقة بين الهدف والسهام علاقة الأصل بالفرع وعلاقة الأم بأبنائها ، فلذلك صوّر الشعراء إقبال السهام على الهدف بأنه كإقبال الأبناء على أمهم ، ولذلك يصف ابن فركون هذه العلاقة بقوله (١) :

تحنُ إليها الذابلات فترتمي فروعاً يرينا الأصل كيف اجتذبتها

وبعد أن يُستأصل الهدفُ من سيقان الشجر محكمة الالتفاف والتماسك ملساء اللحاء ، كانت تجعل على شكل أسطوانة ذات طول مناسب ، فيدبُّ رأسها ليساعدها على الانطلاق عالياً في الفضاء ، وكانت تجوّفُ بحيث تبقى كالأسطوانة الفارغة أو كالطبلة ، وكانت الغاية من تجويفها أولاً لتخفَّ حركتها في الفضاء فتنتقل سريعاً ، وثانياً لكي تحطّ السهامُ في جوفها عندما تصيبها . ولعلَّ وصف لسان الدين بن الخطيب لهذا الهدف بقوله « وطاعة نحر السكّاك » (٢) يشير إلى كونها مدببة الرأس ، أما تجويفها فتدلُّ عليه أبيات كثيرة منها قول لسان الدين بن الخطيب (٣) :

تلقّف حَيّات العصيّ إذا هوت فتعبانها لا يستتمُّ له سرطُ

ولا يستطيع هذا الهدف أن يتلقف العصيّ الصغيرة لولا أنه مجوّف ومفتوح من بعض جوانبه ، ولعلنا نستطيع من هذا البيت ومن خلال العلاقة النسبية بين الثعبان والحيات الصغيرة التي يبتلعها أو يسرطها أن نتصور العلاقة النسبية في حجم الهدف الخشبي والعصيّ (السهام) التي تطلق عليه ، وأطوالها .

١ - انظر المقطوعة رقم (٦) .

٢ - المقطوعة رقم (١) .

٣ - المقطوعة رقم (١) .

ويستطيع الدارس أن يتصور حجم ذلك الهدف قياساً على ما يستطيع تجويفه من استيعاب للعصي التي تطلق عليه ، ويظهر مدى استيعاب الهدف للعصي من خلال البيت السابق :

تَلَقَّفُ حَيَاتِ الْعَصِي إِذَا هَوَتْ فَتُعْبَأُنْهَا لَا يَسْتَمُّ لَهُ سَرَطُ

ومعنى ذلك أنه مهما دخل إلى جوف ذلك الهدف من العصي فإنه لا يكاد يمتلىء^(٥) ويقول ابن زمرك^(١) :

فَخَفَّتْ إِلَيْهَا الذَّابِلَاتُ كَأَنَّهَا طَيُورٌ إِلَى وَكْرٍ أَطْلَنَ تَهَاوِيَا
حَكَتْ شَبْهًا لِلنَّحْلِ وَالنَّحْلُ حَوْلَهُ عَصِيٌّ إِلَى مِثْوَاهِ تَهْوِي عَوَالِيَا
فهو يشبه الهدف تارة بوكر الطيور الذي تُتابع الطيورُ الدخولَ فيه ، وتارة بخلية النحل ، والعصيَّ حوله كالنحل حول خليته .

ويقول ابن زمرك من مقطوعة أخرى مصوراً دخول العصي في الهدف^(٢) :

وَتَتَابَعَهَا هَيْفُ الْعَصِي كَأَنَّهَا سَهَامٌ وَعَاها لِلرَّمِيَّةِ نَابِلُ
تَرَاوَعَهَا طَوْرًا وَطَوْرًا تَضِيْفُهَا فَسَامٌ لِأَعْلَى مَرْتَقَاهَا وَنَازِلُ
ويقول ابن فركون يصف الهدف وهو يتلقف العصي^(٣) :

كَأَنَّ طَيُورًا فِي ذَرَى الْجَوْ حَوِّمَتْ وَثَابَتْ لِأَوْكَارِ بَهَنٍ وَثَابَهَا
تَقِيمُ إِذَا لَاقَى الْأَمَانَ ارْتِيَاعَهَا وَرَتَبَمَا عَنْهَا ثَنَاهَا ارْتِيَابَهَا

* ربما كان القصد أيضاً أن السهام تنغرس في جسد الهدف دون أن تدخل فيه . فتبدو كالشعبان الذي يحاول ابتلاع الأفاعي فلا يستتم له ذلك .

١ - انظر المقطوعة رقم (٣) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٤) .

٣ - انظر المقطوعة رقم (٦) .

أما فتحات ذلك التجويف فيخيل لي أنها كانت جانبية ، وهذا ينسجم مع تشبيه الهدف بوكر الطيور وخليّة النحل والتعبان ، ويساعد هذا أيضاً على بقاء العصي أو السهام داخل الهدف في حالة إصابته ، فأما إن كانت الفتحة في طرف الأسطوانة الخشبية لما تمكن الرماة من إطلاق سهامهم عليه ، ولما استقرت داخل الهدف بل ترجع إلى الأرض بفعل الجاذبية . ويستفاد من تصوير الشعراء للهدف أن هذه الفتحات صغيرة كالثقوب .

ويفهم من المقطوعات التي بين أيدينا أن الهدف كان يُدبّب من رأسه وتثقب حول الرأس المدبّب ثقوبٌ تجعله أشبه بالبرج الصاعد إلى السماء ، ويصف ابن زمرك هذا الرأس المدبّب بقوله (١) :

وَحَصَنٍ مَنِيعٍ فِي ذِرَاهُ قَدْ ارْتَقَى	فَأُبْعِدَ فِي الْجَوِّ الْفَضَاءِ الْمَرَاقِيَا
كَأَنَّ بَرُوجَ الْأَفْقِ غَارَتْ وَقَدْ رَأَتْ	بَرُوجَ قُصُورٍ شِدَّتْهُنَّ سَوَامِيَا
فَأَنْشَأَتْ بُرْجاً صَاعِداً مَتَنَزِلاً	يَكُونُ رَسُولاً بَيْنَهُنَّ مُدَارِيَا

ويقول من مقطوعة أخرى (٢) :

وَبَرَجٍ مَنِيفٍ فِي ذِرَاهَا قَدْ ارْتَقَى	لَتُرْفَعَ مِنْهُ لِلْبُرُوجِ الرِّسَائِلُ
---	--

ويقول من مقطوعة ثالثة (٣) :

١ - انظر المقطوعة رقم (٣) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٤) .

٣ - انظر المقطوعة رقم (٥) .

ويا رَبِّ حَصْنٍ فِي ذَرَاهَا قَدْ اعْتَلَى أَنْارَتْ بُرُوجَ الْأَفْقِ فِي مَظْهَرِ الْعُلَا

بُرُوجَ قُصُورِ شِدَّتْهَا مَتَطَوَّلَا فَأَنْشَأَتْ بَرْجاً صَاعِداً مَتَنَزَلَا

يَكُونُ رَسُولاً بَيْنَهَا مَتَرَدِّدَا

ولعلَّ جعلَ الهدفِ على صورةِ البرجِ كانَ المقصودُ منه أنَ ينسجمَ وبعضَ الأهدافِ المتوخاةِ من هذه الرياضة ، وهي التدريباتُ العسكرية ، لأنَّ إصابةَ هذا الهدفِ وهو على شكلِ البرجِ يسهلُ على الفرسانِ إصابةَ أبراجِ الأعداءِ في أثناءِ الغزواتِ والمعارك^(١) .

ويظهرُ أنَ الثقوبَ التي كانتَ تحيطُ برأسِ الهدفِ كانتَ مصدراً لذلك الزمر الذي كانَ ينبعثُ من الهدفِ أثناءَ صعوده في الفضاء ، ولذلك يصفُ ابنُ زمرٍ هذا الزمرَ بقوله^(٢) :

فَلَمَّا أُبَيِّنَتْ عَنْ قَرَارَةٍ أَصْلُهَا أَرَادَتْ إِلَى مَرْقَى الْغَمَامِ تَعَالِيَا

وَعَدَّتْ لِقَاءَ السُّحْبِ عِيداً وَمَوْسِماً لِذَاكَ اغْتَدَّتْ بِالزَّمْرِ تَلْهِي الْغَوَادِيَا

فَأُضْحِكْتَ الْهَرَقَ الطُّرُوبَ خِلَالِهَا وَبَاتَ لَأُكُوسِ الدَّرَارِي مُعَاطِيَا

١ - يصفُ الشعراءُ هذا البرجَ وكأنه ليس من أصلِ الهدفِ ، بل يضافُ إليه بعد ذلك ، ولا أستبعدُ أنَ يركبَ البرجُ على الهدفِ بعدَ إعداده للإطلاق .

٢ - انظرَ المقطوعةَ رقمَ (٣) .

ويظهر أيضاً أَنَّ الهدف كان يضيّقُ من وسطه بحيث يبدو وكأنّ له خصرأ .
وقبل إطلاق الهدف إلى الفضاء كان يزَيْن بالحليّ والقماش الملوّن ، فيجعل له عند
رأسه شبه التاج ، وفي موضع العنق منه قمّاش ، وفي موضع الخصر منه وشاح ، وفي
موضع القاعدة حليّ كالخلخال ، وبذلك فإنه كيفما تقلّب في الجوّ نتيجة ضربات
السهم فإنه يظل رائق المنظر ، وفي زينة الهدف يقول ابن زمرك^(١) :

تطوّر حالاتٍ أتى في ضروبها بأنواع حليّ تستفزّ الغوانيا
فحجّل^(*) برجليّها ، وشاحٌ بخصرها وتاجٌ إذا ما حلّ منها الأعلىا
ويقول في مقطوعة أخرى^(٢) :

تطور حالاتٍ أتى في جميعها بأوضاع حليّ وصفه متغافلُ
فتاجٌ بأعلاها وشاحٌ بخصرها وفي الساق منه قد أديرَت خلاخلُ
ويقول في مقطع من خمسة له^(٣) :

وهل هي إلا هالةٌ حول بدرها يصوغ لها حلياً يليق بنحرها
تطوّر أنواعاً تشيدُ بفخرها فحجّل برجليّها وشاحٌ بخصرها
وتاجٌ بأعلى رأسها قد تنضدا

١ - انظر المقطوعة رقم (٣) .

* الحجّل (بكسر الحاء وفتحها) : الخللخال (لسان العرب) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٤)

٣ - انظر المقطوعة رقم (٥) .

وقد أشار الشاعر ابن فركون إلى الحلي والقماش الذي يزين به الهدف فقال^(١):

وصاعدة في الجو ألقت ذيولها فراق بآفاق السحاب انسحابها
إذا ثبتت راق العيون ثباتها أو انقلبت راق النفوس انقلابها
فهي إذن بهذا الحلي وهذه الزينة تظل جميلة راقية المنظر سواء أكانت بوضعها
الطبيعي أم انقلبت نتيجة ضربات السهام ؛ وأن القماش يتبعها كالذيول .
إطلاق الهدف إلى الفضاء :

بعد أن كان الهدف يعدُّ على الصورة التي وصفناها ويزين ، كان يجري إطلاقه
إلى الفضاء بحضور السلطان والمتفرجين والفرسان الذين يستعدون لإطلاق سهامهم
نحوه . غير أننا لم نقف في الشعر أو غيره على وصف للطريقة أو الأداة التي كان
يطلق بها الهدف ، أهو بالمنجنيق أم بآلة قذف خاصة أم بالحبال والبكرات ، إلا أن ما
تقدمه المقطوعات التي بين أيدينا من وصف لإطلاق الهدف يقتصر على وصف
السرعة الحافظة لانطلاقه وإلى شقه لعنان السماء إلى الدرجة التي يكاد معها يغيب عن
الأبصار ؛ فهذا ابن زمرك يصف انطلاق الهدف قائلاً^(٢) :

ومسافر في الجو تحسب أنه يسرقى إلى أوج السماء بسلم
ويقول^(٣) :

وطامحة في الجو غير مطالة يرد مداها الطرف أحسر عانيا
تمدُّها لجوزاء كف مصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا

١ - انظر المقطوعة رقم (٦) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٢) .

٣ - انظر المقطوعة رقم (٣) .

ولا عَجَبٌ أَنْ فَاتَتْ الشَّهْبَ بِالْعَلَا
فَبَيْنَ يَدَيَّ مِثْوَالِكَ قَامَتْ لِحْدَمَةٍ
ويقول (١) :

وصاعدة في الجوّ ملءَ عنانها
طلعتَ تحيّي البدرَ منها بصعدةٍ
ويقول (٢) :

وذاهبَةٍ في الجوّ ملءَ عنانها
يفوتُ ارتدادَ الطرفِ لمحَ عيانها
وقد لَفَعَتْهَا السُّحْبُ بُرْدَ عِنَانِهَا
وتَحْتَمَّتِ الْجُوزَاءُ سَبْطَ بِنَانِهَا
وصاغت لها حلِيُ النجومِ مقيّدا

أراها عمودُ الصُّبْحِ علُوَ المِصَاعِدِ
ويقول ابنُ فَرَكُونٍ (٣) :

وصاعدة في الجوّ أَلْقَتْ ذِيولَهَا
ويقول ابنُ الْحَاجِّ النَّمِيرِي (٤) :

وقد صَعَدَتْ فِي الْجَوِّ آيَةُ طَبْلَةٍ
تَحَاكِي عُمُودَ الْفَجْرِ أُسْفَرَ لِلسُّفْرِ

١ - انظر المقطوعة رقم (٤) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٥) .

٣ - انظر المقطوعة رقم (٦) .

٤ - انظر المقطوعة رقم (٧) .

ويظهر أنه بعد انطلاق الهدف في الفضاء بهذه السرعة وهذا العلو الذي يصفه الشعراء ، تعود فتسبح في الفضاء بشكل مناسب ، ولهذا وصفها عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب بقوله (١) :

وساقية العماد إذا أطلت إلى الأدواح تنساب أنسابا
ونجد إشارة في تخميس ابن زمرك قد تشير إلى ما يمكن أن يكون وسيلة لإطلاق الهدف إلى الفضاء ، إذ يقول في وصف الهدف (٢) :

أراها عمود الصبح علو المصاعد وأوهمها قرب المدى المتباعد
ففاتته سبقاً في مجال الرواعد

فهل توحي كلمة الرواعد في هذا السياق ، باستخدام المتفجرات أو الأسهم النارية في إطلاق الهدف ؟! لا سيما أن بني الأحمر قد عرفوا البارود واستخدموا المدافع منذ سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م في فتح حصن أشكر (٣) .

أما انسياب الهدف في الفضاء بعد نفاد حدة انطلاقه ، فربما يكون مرده إلى قطع القماش التي يزين بها ، والتي قد تشكل له ما يشبه المظلة أو المنطاد ، ولذلك نجد لسان الدين بن الخطيب يشبه هذا الهدف بسفينة الفضاء حيث يقول في وصفها مخاطباً سلطانه (٤) :

أزرت بها بحر الفضاء سفينة على الجو لا الجودي كان لها حظ

١ - انظر المقطوعة رقم (٨) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٥) .

٣ - لسان الدين بن الخطيب ، الكنيسة الكامنة في من لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، أعدها وحققها : الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٧٨ (من قصيدة للشاعر محمد بن شقرال) .

٤ - انظر مقطورة رقم (١) .

ومما مر من الآيات التي تصف صعود الهدف إلى الفضاء يتبين أنه كان يثبت أحياناً في الفضاء أي يمشي بطريقة مستقرة مناسبة ، مما يدل على أن طريقة صناعة هذا الهدف مع الإضافات التي تلحق به كانت تمكنه من الاستقرار في الفضاء ، مما يسهل مهمة الرماة الذين يطلقون الأسهم نحوه .

الرُّماة / اللاعبون :

بعد أن كان الهدف يندفع إلى الفضاء كان الفرسان والرماة تتبعه بالعصيّ (السهام) بكثرة ، بحيث تنهمر عليه العصي بكثافة تريد إصابته والدخول إلى جوفه ، فيعض العصي تخترقه وتنزل في جوفه من فتحاته المختلفة وبعضها يخطئه فيعود إلى الأرض ، وكلما رام ذلك الهدف هبوطاً حالت السهام دون الإذن له بذلك ، وأبقتة قائماً في الجو . وفي ذلك يقول ابن زمرك في وصف الهدف عندما يحاول الهبوط إلى الأرض^(١) :

رامَ اسْتِراقَ السَّمْعِ وهو مُمنَّعٌ فأصِيبَ من قَضْبِ العصيِّ بِأسْهُمٍ
رَجْمَتُهُ من شَهَبِ التَّصَالِ حَوَاصِبٌ لولا تَعَرُّضُهُ لَهَا لَمْ يُرْجَمِ
ويقول^(٢) :

وقد أُعْرِبَتْ بِالرُّفْعِ عن طِيبِ فَخْرِهَا متى نَصَبْتُهَا في الفضاءِ العَوَامِلُ

(والشاعر يستخدم هنا المصطلحات النحوية بقصد التورية في وصف ارتفاع الهدف في الجو وحيلولة السهام دون هبوطه إلى الأرض ، فالعوامل في هذا البيت هي من جهة العوامل النحوية ومن جهة أخرى السهام) .

١ - انظر المقطوعة رقم (٢) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٤) .

ومثلما كانت بعض الرماة تصيب الهدف كان بعضها الآخر يخطئه ، يقول ابن زمرك في وصف السهام^(١) :

فمن مثبتٍ منها الرمية مدركٍ ومن طائشٍ في الجو حلقٍ وانيا
ويقول في وصف السهام^(٢) :

تراوغها طوراً وطوراً تضيفها فسام لأعلى مرتقاها ونازلُ

ويفهم من المقطوعات التي تصف هذه اللعبة أن الرماة كان يطلقون الأسهم على الهدف وهم ركوبٌ على الخيل ، يدلُّ على ذلك قول عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب^(٣) :

تحفُّ بها خيولُ القوم منّا فترسِلُ نحوها الجردُ العرابا
ويقول ابن الحاج النميري^(٤) :

وقد جالَ نفعُ الخيل في جنباتها كما جالَ في الأفكار معنى من الشعرِ

ولكنَّ ذلك لا ينفي وجود رماةٍ غير ركوب يطلقون العصيَّ على الهدف ، غير أن استعمال الخيل في هذه الرياضة قد يكون لكون هذه الرياضة لوناً من ألوان الفروسية، وربما للتمكن من إصابة الهدف الذي ينطلق بسرعة كبيرة لا تدركها إلا الخيل .

١ - انظر المقطوعة رقم (٣) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٤) .

٣ - انظر المقطوعة رقم (٨) .

٤ - انظر المقطوعة رقم (٧) .

العصيّ / السّهام :

أما العصيّ أو السّهام التي كان يطلقها الفرسان على الهدف ، فقد ورد وصفها في عدة أبيات ، ويستطيع الدارس من مجمل هذه الصفات أن يتبين أنها عصيّ رقيقة قصيرة ذات رأس معدني مدبب ؛ فمما قاله لسان الدين بن الخطيب في وصف الهدف وهو يتلقف العصيّ^(١) :

تلقّف حيّاتِ العصيّ إذا هوت فتعبانها لا يستتمّ له سرط

ويفهم من هذه الصورة أن العصيّ قريبة الشبه بالحيّات الصغيرة من جهة الطول والسّمك والرأس المدبّب ، وأن الهدف قريب الشبه بالثعبان الضخم الذي يتلعّ الحيات. وفي لسان العرب الثعبان : الحية الضخم الطويل ، الذكر خاصة ، وهو من أعظم الحيات^(٢) . ويبدو أن الشاعر قد تمثّل عصا سيّدنا موسى وهي تتلقف الأفاعي ، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾^(٣) ، وقوله تعالى ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ، فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾^(٤) .

ولعل لهذا البيت صلة بقول بعضهم في الرماح « خُلِقَتْ كالأرقام ، لتغر الحلاقم »^(٥) .

١ - انظر المقطوعة رقم (١) .

٢ - ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : ثعب .

٣ - الأعراف : آية (١١٧) .

٤ - الشعراء : آية (٤٣ - ٤٥) .

٥ - ابن هذيل ، عليّ بن عبد الرحمن الأندلسي (ق ٨ هـ / ق ١٤ م) ، حلية الفرسان وشعار الشجعان

تحقيق وتعليق : محمد عبدالغني حسن ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ ص ٢٠٢ .

ومما قاله ابن زمرك في وصف الهدف والعصي معاً^(١) :

رام استراق السمع وهو مُمنع فأصيب من قُضِبِ العصي بأْسهم
رجمته من شُهْبِ النصال حواصب لولا تعرُّضُهُ لَهَا لَمْ يُرْجَمِ

وصفة العصي في البيت الأول أنها قضبان خشبية ولكنها مديسة الرأس كالأسهم ، وفي البيت الثاني أنها نصال ، والنصال لا تكون إلا معدنية ، والعصي إذا كانت ذات نصال في رأسها ، فإنها تصبح رماحاً ، وشبهها في البيت الثاني بالشهب لأن نصالها لامعة .

وفي موضع آخر يصف ابن زمرك هذه العصي بالذابلات حيث يقول^(٢) :

فخَفَّتْ إليها الذابلات كأنها طيورٌ إلى وكرٍ أطلنَ تهاوياً

والذابلات جمع ذابل وهو الرمح ذو العصا اللينة . وقد استعملت صفة الذبلات للعصي في أكثر من موضع من المقطوعات التي بين أيدينا^(٣) . وهي من أفضل صفات الرمح^(٤) .

وفي مقطوعة أخرى يصف ابن زمرك العصي بالصَّعْدَة ، حيث يقول^(٥) :

طلعتَ تحيِّيَ البدرَ منها بصعدةٍ عليها لواءُ الصُّبحِ في الأفقِ مائلُ
وقد أعربتَ بالرفع عن طيبِ فخرها متى نصبتها في الفضاءِ العوامِلُ

١ - انظر المقطوعة رقم (٢) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٣) .

٣ - انظر المقطوعتين ٥ ، ٦ .

٤ - ابن هذيل ، حلية الفرسان ص ٢٠٣ .

٥ - انظر المقطوعة رقم (٤) .

والصعدة في البيت الأول هي عصا الرمح إذا نبتت مستوية ولم تحتج إلى تثقيب^(١). وفي البيت الثاني استخدم كلمة «عوامل» في وصف العصي التي أقيت على الهدف منتصباً في الجو ، والعوامل جمع عامل وهو رأس الرمح إلى قدر الثلث منه^(٢). ويقول ابن زمرك أيضاً^(٣) :

وتنابها هفُ العصي كأنها سهامٌ وعاهها للرمية نابلٌ

ويفهم من هذا البيت ، في صفة تلك العصي أنها ليست من النوع الغليظ ، بل من النوع الرقيق وأنها رقيقة رقة السهام التي يقذفها الرماة بالقوس .

وعلى ذلك فإن هذه العصي المستخدمة في قذف الهدف هي قضبان رشيقة رقيقة شبيهة بالسهام لها رؤوس مدببة تساعد على اختراق الهدف . ولعل النوع المستخدم في هذه الرياضة هو ما يُعرف بالمزراق الذي « يُرمى به للطافة عصاه ، وقد يكون سنانه مربعاً لطيفاً لخرق الدروع وشبه ذلك »^(٤) . وعندما يصف لسان الدين بن الخطيب سلاح الجمهور الغرناطي في كتابيه «الإحاطة» و «اللمحة البدرية» يقول : وسلاح جمهورهم العصي الطويلة المثناة بعصي صغار ذوات عرى في أوساطها ، تدفع بالأنامل عند قذفها ، تسمى بالأمداس^(٥) . وربما تكون هنالك صلة بين هذه العصي الصغار والعصي المستخدمة في رياضة الطيلة .

١ - ابن هذيل ، حلية الفرسان ص ٢٠٣ .

٢ - المصدر نفسه .

٣ - انظر المقطوعة رقم (٤) .

٤ - ابن هذيل ، حلية الفرسان ص ٢٠٢ .

٥ - لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة ١/١٣٦ - ١٣٧ ؛ اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، ص ٣٩ .

ورقة هذه العصي وقصرها وحدة رؤوسها ولمعانها هو الذي كان يساعدها على الانطلاق بسرعة البرق في الجو واختراق هدفها ، ولذلك يصفها ابن الحاج النميري بقوله (١) :

وأنحوا عليها بالعصي كأنها بروق ولكن بالبروق غدت تُزري

ولكثافة هذه العصي حول الهدف ، مما يدل على كثرة اللاعبين ، فقد شبهها الشعراء بتشبيهات عدة ، فتارة شبهوها بالطيور وتارة بالنحل وتارة بالأفاعي ، وهاهو عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب يشبهها بالفراش حول المصباح ، قائلاً (٢) :

تحومُ بها العصيُ فراشَ ليل تروم بسمعه منه اقترابا

الفوز والخسارة :

أما أسس الفوز والخسارة في هذه اللعبة ، فيمكن أن نستأنس في معرفتها بالتصور العام لهذه اللعبة فضلاً عن بعض الإشارات الواردة في مقطوعة ابن الحاج النميري (٣) في وصف هذه اللعبة . ولعل إصابة الهدف بالسهم ودخولها في جوفه تعدّ مقياساً للفوز وأنّ عدم إصابة الهدف وابتعاد العصي عنه يعدّ مقياساً لخسران جولة اللعب . ونجد ابن الحاج النميري في أبياته يقسم النتيجة إلى ثلاثة أقسام :

الأول : إصابة الهدف وكسره ، وبكسره تدخل العصا إلى جوف الهدف ، ويعدّ ذلك فوزاً عظيماً ، فيقول في وصف الهدف (٤) :

١ - انظر المقطوعة رقم (٧) .

٢ - انظر المقطوعة رقم (٨) .

٣ - المقطوعة رقم (٧) .

٤ - انظر المقطوعة رقم (٧) .

من الطبلات اللاء ما زال كسرهما لدى البطل الأحمى يعدُّ من الجبر
والثاني : إصابة الهدف دون كسره ودون دخول السهم في جوفه ، ويعدُّ ذلك
نقطة لصالح الرامي ، لكنها ليست في المستوى الأول ، حيث يقول (١) :

وضاربها يوم الوفود عقوقه وإن كان لا يخفى يعدُّ من البسر

وأما الثالث : فهو عدم كسر الهدف وعدم إصابته ، وفي هذه الحالة يبدو
الهدف وكأنه يزري بالعصي التي ترمى عليه ، فيقول ابن الحاج (٢) :

وأنحوا عليها بالعصي كأنها بروق ولكن بالبروق غدت تُزري

ولا شك أن إخفاق الرامي في إصابة الهدف هو دليل على خسارته الجولة ، فقد
اتضح لنا من خلال الأوصاف المذكورة لهذه اللعبة أن السبيل إلى إبقاء الهدف سابحاً
في الفضاء دون هبوطه على الأرض هو الاستمرار في إصابته بالسهم ، ومتى أخفقت
السهم في إصابته هبط على الأرض ليعلن خسارة الرماة في تلك الجولة .

اسم هذه الرياضة :

اختلفت المصادر في اسم هذه الرياضة ، فبعضها تسميها « الطلبة » ، وبعضها
الآخر يسميها « الطبلّة » ؛ فقد أطلق إسماعيل بن يوسف بن الأحمر على الهدف الذي
يقذف بالعصي اسم « الطلبة » ، وذلك في تقديمه لقصيدة لسان الدين بن الخطيب (٣) ،
حيث يقول عن تلك القصيدة « وتشتمل على أوصاف من ذكر الحلبة التي أرسلها ،

١ - المصدر السابق نفسه .

٢ - المصدر السابق نفسه .

٣ - انظر المقطوعة رقم (١) .

والطلبة التي نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصي إليها ...»^(١) وفي تقديمه لقصيدة ابن زمرك^(٢) يقول إسماعيل بن الأحمر إن الشاعر قد «أجاد في وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع»^(٣).

أما لسان الدين بن الخطيب فإنه يطلق عليها اسم الطلبة ، وذلك في تقديمه لقصيدته السابقة^(٤) حيث يقول مشيراً إلى سلطانه إنه «استركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجو المسمى بالطلبة»^(٥).

وفي رأيي أن الاسم الصحيح لها هو «الطلبة» وذلك لورودها في الشعر على هذه الصورة ، فقد ذكرها ابن الحاج النميري في مقطوعته حيث يقول^(٦) :

وقد صعدت في الجوّ آية طلبة ... إلخ

ويقول^(٧) :

من الطيلات اللاء ما زال كسرهما لدى البطل الأحمى يعدُّ من الجبر

ولعلّ سبب الخلط في التسمية هو تقارب صورة الاسمين ، واحتمال وقوع التصحيف عند إسماعيل بن يوسف بن الأحمر أو عند المقرئ الذي نقل رواية إسماعيل بن الأحمر . وربما يكون سبب الاختلاف في الاسم أن كلا الاسمين ينطبق

١ - نفسه ، وانظر : المقرئ ، نفح الطيب ٤٥٩/٦ - ٤٦٠ .

٢ - انظر مقطوعة رقم (٢) .

٣ - المقرئ ، نفح الطيب ١٨٤/٧ ؛ أزهار الرياض ٦٠/٢ .

٤ - مقطوعة رقم (١) .

٥ - ابن الخطيب ، الإحاطة ٤٧٩/٤ .

٦ - انظر المقطوعة رقم (٧) .

٧ - نفسه .

على هذه الرياضة ؛ فتسميتها بالطلبة منبثق من المعنى اللغوي للطلبة ، وهو : ما طلبته من شيء^(١) . والهدف في هذه اللعبة كان يطلب بالعصي . وأما تسميتها بالطلبة فمنبثق من صفتها ، فهي كالطلبة في كونها قطعة خشبية مجوفة يخرج لها صوت كصوت الطبل حين تظفر بها العصي ، ولست استبعد شيوع الاسمين معاً بين أهل غرناطة ، وأن يكون أحدهما قد أصابه القلب فتقدم أحد الحرفين (الباء واللام) على الآخر ، كما يحدث كثيراً عند عوام الناس في كثير من الأسماء ، وشاع الاسمان على هذا النحو ، وساعد في شيوعهما مناسبة الاسمين للمسمى دون إخلال بصفته في الحالين .

التأثير والتأثير :

لم تتعرض المصادر الأندلسية التي ألفت قبل عصر بني الأحمر إلى هذه الرياضة ، على الرغم من أن ألعاب الخيل والفروسية كانت الرياضة المفضلة لدى المسلمين في الأندلس وغيرها عبر عصور التاريخ الإسلامي لغايات الحرب ، كما هو الحال عند الرومان الذين وقف الأندلسيون على تراثهم في الأندلس ، فقد كانت الرياضة العسكرية تشكل جانباً أساسياً من برنامج تربية الشباب وكانت تتضمن تدريبه على الجري والوثب والسباحة ورمي الرمح والمبارزة ، وكانت الفرسان تتدرب على القوس والنشاب والركوب^(٢) .

وفي رأيي أن هذه الرياضة عند الأندلسيين كانت نتيجة طبيعية لانتشار ألعاب الفروسية وتطورها والتعريف إلى قوانين الفروسية عند الأوروبيين ، والمتتبع لتاريخ

١ - لسان العرب ، مادة : طلب .

٢ - ديوبولد ب . فان دالين ، لمر ، د . ميشل ، بروس ل . بنيت ، تاريخ التربية البدنية ، ترجمة الدكتور محمد عبدالحالقي علام والدكتور محمد محمود فضالي ، دار المعرفة ، القاهرة ، ص ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٦ .

الرياضة عند المسلمين يجد صوراً مشابهة لرياضة الطلبة عند الماليك ، ومن ذلك رياضة « القبق » ، وهي عبارة عن خشبة ينصب في أعلاها جسمٌ أشبه بالقرعة العسلية ، وكان الماليك يجعلون في وسطها طير حمام ، ويسوقون ويرمونها في أيام المواسم والأعياد^(١) .

والذي يبدو لي أن رياضة « الطلبة » عند الأندلسيين ورياضة « القبق » عند الماليك هما من الأشكال المتقدمة لرياضة كرة السلة .

ملاحظات ختامية :

رياضة « الطلبة » عند الأندلسيين هي إحدى ألعاب الفروسية ، كان من غاياتها التدريب على الرماية من أجل الاستعداد للجهاد ، شأنها في ذلك شأن رياضة الفروسية بمختلف أشكالها ، وقد أشار ابن الحاجّ النميري إلى هذه الغاية من رياضة الطلبة وعناية سلطانه بها حيث يقول^(٢) :

فذلك منه للجهاد تدربٌ سيسقي به الحزب الذي دان بالكفر

ويقول ابن زمرك إن سلطانه قد كلف الأدباء وصف هذه الرياضة وغيرها من الألعاب التي جرت في أحد احتفالات السلطان^(٣) :

لمولى تولاه وأحكم رصفه وكلف أرباب البلاغة وصفه

غير أن سلاطين غرناطة كانوا يرون أن وصف هذه الرياضة يليق بشعراء دون شعراء آخرين ، فيحدثنا لسان الدين بن الخطيب أن سلطانه نهاه عن الهبوط إلى درجة

١ - عبدالعزيز ، دكتور نبيل محمد ، الخيل ورياضتها في عصر سلاطين الماليك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٦٦ .

٢ - انظر المقتوعة رقم (٧) .

٣ - انظر المقتوعة رقم (٥) .

وصف المناسبات التي وصف بها لعبة الطلبة ، فعندما أورد قصيدته التي تتضمن وصفاً لهذه اللعبة قال : « وهي آخر الشعر في هذا الغرض ، لخلج السلطان من تنزلي إلى ذلك وتنزيهي ^(١) عنه تجلّة ، أجلّه الله وكرّمه » ^(٢) .

وفي ظني أنه لولا تحرّج السلطان من استمرار ابن الخطيب في وصف هذه الرياضة لربما قدّم لنا ابن الخطيب تفاصيل أكثر عنها . غير أنّ القصائد التي عرضت لهذه الرياضة استطاعت أن تقدّم لنا مجتمعة بعض ملامح هذه الرياضة .

ويلاحظ في جميع المقطوعات التي وصفت هذه الرياضة أنّ أيّاً منها لم يكن مستقلاً منفرداً بوصف هذه الرياضة بل جاءت كلّ منها ضمن قصيدة مطوّلة في وصف جملة ألعاب احتفالية . ولم يستطع أيّ شاعر أن يعطي وصفاً دقيقاً لهذه الرياضة بل انصرف هؤلاء الشعراء إلى المبالغات والتشبيهات المختلفة التي تجعل التمييز بين الحقيقة والخيال أمراً عسيراً ، ولذلك جاءت كلّ مقطوعة من هذه المقطوعات على حدة - وكأنها لغز - . ويلاحظ أيضاً أنّ جميع هذه المقطوعات جاءت متشابهة ومتأثراً بعضها ببعض في الألفاظ والصور والتشبيهات ، مما لا يعطي لأيّ منها خصوصية بارزة في توضيح صورة هذه الرياضة أو حتى في تمييز أسلوب شاعر عن غيره ، هذا فضلاً عن أنّ هذه المقطوعات تتسم بالتكلف والخلو من الحرارة والعاطفة والطبع كما يلاحظ أنّ جميع المقطوعات التي تصف هذه الرياضة تنتمي إلى عصر واحد وهو عصر بني الأحمر ولاسيما بعد النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

١ - في الإحاطة : وترفيهي ، وربما كانت مصحفة .

٢ - لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة ٤/٤٧٩ .

بقي أن أقول إنَّ هذه الرياضة ووصف الشعراء الأندلسيين لها تؤكد أن حلم أهل الأندلس باختراق الفضاء لم يبرح الخيال الأندلسي منذ أيام عباس بن فرناس الذي خاطر بمحاولة الطيران في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، حتى عصر بني الأحمر حيث يتبارى الشعراء في وصف المسافات التي أوغلت بها الطلبة في مدارج السماء ، وحيث جهز الأندلسيون هذه « الطلبة » بكل ما يمكنها من اختراق الفضاء لكي^(١) :

تمدّ لها الجوزاءُ كفَّ مصافحٍ ويدنو لها بَدْرُ السماءِ مناجيا

١ - انظر المقطوعة رقم (٣) .

ملحق

المقطوعات الشعرية التي وصفت الطلبة

(١)

يقدم لسان الدين بن الخطيب^(١) لإحدى قصائده بقوله : « وقولي في امتداح
سلطاني لما احتفل لإعذار ولده ، واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في
الجو المسمى بالطلبة وهي آخر الشعر في هذا الغرض لخلج السلطان من تنزلي
إلى ذلك ، وترفيهي عنه تجلّة ، أجلّه الله وكرمه لديه :

شَحَطْتُ وفود الليل بان به الوخْطُ وعسكره الزنجي هم به القبط^(٢)

١ - هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب (٧١٣ هـ -
٧٧٦ هـ / ١٣١٣ - ١٣٧٥ م) وزير بني الأحمر في غرناطة وكاتبهم وشاعرهم الذي وصفه
إسماعيل بن الأحمر بأنه « كاتب الأرض إلى يوم العرض ». تولى الكتابة عن السلطان أبي
الحجاج يوسف الأول والسلطان الغني بالله محمد الخامس بن الأحمر ، وتولى الوزارة لهما ،
وعندما خلع سلطانه الغني بالله سنة ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م ظل لسان الدين معه إلى أن عاد إلى ملكه
بعد سنتين من خلع ، وصار لابن الخطيب شأن عظيم ، حسده له خصومه ، فأوقعوا به لدى
السلطان ، فقتله سلطانه في المغرب سنة ٧٧٦ هـ . ولابن الخطيب مؤلفات ورسائل وأشعار زادت
على السنتين مؤلفاً .

(ابن الخطيب ، الإحاطة ٤/٤٣٨ - ٦٤٠ ، المقرئ ، نفع الطيب (الأجزاء الخامس والسادس
والسابع) ، ابن الأحمر ، إسماعيل بن يوسف (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) ، نثر فرائد الجمال في
نظم فحول الزمان ، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص
٢٤٢ - ٢٩٢ ؛ ابن خلدون ، عبدالرحمن (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) ، التعريف بابن خلدون
ورحلته شرقاً وغرباً ، دار الكاتب اللبناني ، بيروت ، ودار الكتاب المصري - القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص
١٦٧ - ٢٣١) .

٢ - ابن الخطيب ، الإحاطة ٤/٤٧٩ ؛ المقرئ ، نفع الطيب ٦/٤٥٩ - ٤٦٠ (وفي نفع الطيب :
الطلبة) .

إلى أن يصل إلى وصف الطلبة فيقول^(١) :

وطاعة نَحَرَ السُّكَاكِ^(٢) أعانها على الكونِ عرقٌ واشجٌ ولحي سَبَطُ
تَلَقَّفُ حَيَاتِ العَصِي إِذَا هَوَتْ فتعبانها لا يَسْتَتِمُ^(٣) له سَرَطُ
أَزْرَتْ بها بحر الهواء سفينةً على الجو^(٤) لا الجودي كان لها حطُ

(٢)

قدّم الأمير إسماعيل بن يوسف بن الأحمر في كتابه « البقية والمدرك من كلام ابن زمرك »^(٥) لإحدى قصائد ابن زمرك^(٦) بقوله : « ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المختص بعمينا السيدين الأميرين سعد ونصر ، رحمة الله عليهما ، وأجاد في وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع »^(٧) :

١ - ابن الخطيب ، الإحاطة ٤/ ٤٨٢ ؛ المقرئ ، نفح الطيب ٦/ ٤٦٢ .

٢ - الجو (لسان العرب) .

٣ - النفج : يستقيم .

٤ - الإحاطة : الجود .

٥ - ما زال هذا الكتاب في عداد الكتب المفقودة ، وقد نقل المقرئ في أزهار الرياض أجزاء كبيرة منه .

٦ - أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد الصريحي ، ولد بغرناطة وتعلّم على شيوخها ومنهم ابن الخطيب سنة ٧٣٣ هـ ، وتولّى الكتابة لسلاطين غرناطة ولاسيما محمد الخامس الغني بالله المتوفى سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م ، وابنه يوسف الثاني ، وكتب عن السلطان أبي سالم المريني في المغرب ، برع في النظم وخاصة في شعر الأعياد والمناسبات ، ويقال إنه وشى بأستاذه لسان الدين بن الخطيب ، وتوفي ابن زمرك قتيلاً بعد سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م (انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ٢/ ٣٠٠ - ٣١٤ ؛ الكتبية الكامنة ٢٨٢ - ٢٨٨ ؛ ابن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ٣٢٦ - ٣٢٩ ؛ المقرئ ، نفح الطيب ٦/ ٧٥ - ٨٠ ، ٧/ ١٤٥ - ٢٨٠ ؛ أزهار الرياض ٢/ ٧ - ٢٠٦ ؛ وخصه الدكتور أحمد سليم الحمصي بكتاب عنوانه : ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ودار الإيمان - طرابلس لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ ؛ وخصه إميلييو غارسيا غومس بفصل خاص من كتابه مع شعراء الأندلس والمنتبى بعنوان : ابن زمرك شاعر الحمراء ، ص ٢١٩ - ٣٤١) .

٧ - المقرئ ، أزهار الرياض ٢/ ٦٠ ؛ نفح الطيب ٧/ ١٨٤ .

أرسلته دمعاً تضرّج بالدم أَللمحة من بارق متيسّم
ويقول في وصف « الطلبة » (١) :

يرقى إلى أوج السماء بسلم ومسافر في الجوّ تحسب أنه
فأصيب من قُضِبِ العصي بأسهم رام استراق السَّمع وهو ممْنَع
لولا تعرّضه لها لم يُرْجَم رَجَمَتْهُ من شُهْبِ النصال حواصب (٢)

(٣)

يقول ابن زمرك من قصيدة مطوّلة في وصف بعض الاحتفالات ، مطلعها (٣) :

سلّ الأفق بالزُّهرِ الكواكبِ حالياً فإنّي قد أودعته شَرَحَ حالياً
يقول منها في وصف الطلبة (٤) :

يردُّ مداها الطرفَ أحسَرَ عانياً وطامحة في الجوِّ غير مُطالِةٍ
ويدنو لها بدرُ السماءِ مُناجياً تمُدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مُصافح (٥)
وأنْ جاوزتْ منها المدى المتناهِيا ولا عَجَبٌ أنْ فاتت الشُّهْبَ بالعلَا
ومَنْ خَدَمَ الأعلى استفادَ المعاليَا فبيّنَ يديْ مشواك قامت للخدمةِ
وقد حَسَدَتْ زُهرَ النجومِ مكانيَا وشاهدُ ذا أني يبابك واقفٌ

١ - المقرئ ، أزهار الرياض ٦٥/٢ ؛ نفح الطيب ١٨٧/٧ .

٢ - يذكر محقق النفح أن هذه الكلمة وردت في إحدى النسخ « قواضب » ويعلق قائلاً : « ولها وجه ، لأنه يتحدث عن الجواد ، فالقواضب السيوف وهي ترجمه أي تتعرض له » .

٣ - المقرئ ، أزهار الرياض ٦٥/٢ ؛ نفح الطيب ١٨٨/٧ .

٤ - المقرئ ، أزهار الرياض ٧٢/٢ ؛ نفح الطيب ١٩٣/٧ - ١٩٤ .

٥ - في النفح : مُسارع .

وَقَدْ أَرْضَعَتْ تُدَيَّ الْغَمَائِمِ قَبْلَهَا
فَلَمَّا أُبَيِّنَتْ عَنْ قَرَارَةِ أَصْلَهَا
وَعَدَّتْ لِقَاءَ السُّحْبِ عَيْدًا وَمَوْسِمًا
فَأَضْحَكَتِ الْبُرْقُ الطُّرُوبَ خِلَالَهَا
رَأَتْ نَفْسَهَا طَالَتْ فَظُنَّتْ بِأَنَّهَا
فَخَفَّتْ إِلَيْهَا الذَّابِلَاتُ كَأَنَّهَا
حَكَتْ شَبَّهًا لِلنَّحْلِ وَالنَّحْلُ حَوْلَهُ
فَمِنْ مَثَبٍ مِنْهَا الرَّمِيَّةُ مُدْرِكِ
وَحَصْنٍ مَنِيعٍ فِي ذِرَاهِ قَدْ ارْتَقَى
كَأَنَّ بَرُوجَ الْأَفْقِ غَارَتْ وَقَدْ رَأَتْ
فَأَنْشَأَتْ بَرْجًا صَاعِدًا مُتَنَزِّلًا
تَطْوُرُ حَالَاتٍ أَتَى فِي ضُرُوبِهَا
فَحِجْلٌ بِرَجْلَيْهَا ، وَشَاخٌ بِخَصْرِهَا
وَمَا هُوَ إِلَّا طَيْرٌ سَعْدٍ بِذِرْوَةٍ

بِحَجَرِ رِيَاضٍ كُنَّ فِيهِ نَوَاشِيَا
أَرَادَتْ إِلَى مَرْقَى الْغَمَامِ تَعَالِيَا
لِذَاكَ اغْتَدَتْ بِالزَّمْرِ تُلْهِي الْغَوَادِيَا
وَبَاتُ^(١) لَأَكْوَاسِ الدَّرَارِيِّ مُعَاطِيَا
تَفُوتُ عَلَى رَغَمِ اللَّحَاقِ الْمَرَامِيَا
طَيُورٌ إِلَى وَكْسَرٍ أَطْلُنَ تَهَاوِيَا
عَصِيٌّ إِلَى مِثْوَاهِ تَهْوِي عَوَالِيَا
وَمِنْ طَائِشٍ فِي الْجَوِّ حَلَقَ وَانِيَا
فَابْعَدَ فِي الْجَوِّ الْفَضَاءِ الْمَرَايَا
بِرُوجِ قُصُورٍ شَدَّتْهُنَّ سَوَامِيَا
يَكُونُ رَسُولًا بَيْنَهُنَّ مُدَارِيَا
بِأَنْوَاعٍ حَلَّى تَسْتَفْزُ الْغَوَانِيَا
وَتَاجٌ إِذَا مَا حَلَّ مِنْهَا الْأَعَالِيَا
غَدَا زَاجِرًا مِنْ أَشْهَبِ الصُّبْحِ بَازِيَا

١ - في النسخ : وبات .

(٤)

من قصيدة لابن زمرك في وصف إحدى الاحتفالات التي في عهد السلطان يوسف الثاني ، ومطلعها (١) :

نجومٌ أمدَّتْها بدورٌ كوامِلُ لها النور من شمس الخلافةِ شاملُ

ومنها (في وصف الطلبة) (٢) :

وصاعدةٌ في الجوّ ملء عنانها تُسامِتُ أَعْنَانَ السَّما وتُطاولُ
طلعتَ تحيّي البدرَ منها بصعدةٍ (٣) عليها لواءُ الصُّبحِ في الأفقِ مائلُ
وقد أعرَبتَ بالرفعِ عن طيبِ فخرها متى نصبتَها في الفضاءِ العوامِلُ
يعدُّ لها الكفُّ الخضيبُ بساعِدِ ويشكي السماكُ الأعزَلُ الرمحِ عامِلُ
وتتأبُّها هيفُ العصيِّ كأنَّها سهامٌ وعَماها للرَمِيَةِ نابِلُ
تراوغها طوراً وطوراً تضيّفُها فسامُ لأعلى مرتقاها ونازلُ
وبالأمس كانت بعضُ أغصانِ دَوْحِها فنقلَها عنها على الرغَمِ ناقلُ
فحنَّتْ إلى أوطانها وتسابقتْ تعاوِدُ مسراها بها وتواصلُ
وَبُرْجٌ مُنِيفٌ في ذراها قد ارتقى لثُرْفَعٍ منه للبروجِ الرِسايلُ
تطورُ حالاتِ أتي في جميعها بأوضاعِ حلِّي وصفه متغافلُ
فتاجٌ بأعلاها ، وشاحٌ بخصرها وفي الساقِ منه قد أديرَتِ خلاخلُ
وما هو إلا قائمٌ مدُّ مُلكه إلى اللّهِ في البقيما لما صدَّ سائلُ

١ - المقرّي ، أزهار الرياض ٧٤/٢ .

٢ - نفسه ٧٧/٢ .

٣ - الصَّعدة : الرمح إذا كانت عصاه قد نبئت مستوية ولم تحتج إلى تثقيب (ابن هذيل ، حلية الفرسان ص ٢٠٣) .

(٥)

يقول ابن زمرق في تخميس له يصف فيه صنيعاً لبعض أمراء بني الأحمر ،
مطلعه (١) :

أرقتُ لبرقي مثل جفني ساهرا ينظّم من قطر الغمام جواهرها
فأضحك زهرُ الروض منه أزهرا وصبح حكى وجه الخليفة باهرا
تجسّم من نور الهدى وتجمّدا

ويقول منه في وصف الطلبة (٢) :

وذاهبة في الجوّ ملء عنانها وقد لفعّتها السحبُ بردَ عنانها
يفوت ارتداد الطرف لمح عيانها وختمت الجوزاء سبط بنانها
وصاغت لها حلّي النجوم مقيدا
أراها عمود الصبح علو المصاعد وأوهمها قرب المدى المتباعد
فقاتته سبقاً في مجال الرواعد وأتحفت الكف الحضيّب بساعد
فطوّقت الزهر النجوم بها يدا
وقد قدّتها للعصي حواصب قد انتشرت في الجوّ منها ذوائب
تزاور منها في الفضاء حبايب فبينهما من قبل ذاك مناسيب
لأنهما في الروض قبل تولدا

١ - المقرّي ، أزهار الرياض ٨١/٢ - ٨٢ ؛ نفح الطيب ١٩٥/٧ - ١٩٦ .

٢ - المقرّي ، أزهار الرياض ٨٩/٢ - ٩٠ ؛ نفح الطيب ٢٠٣/٧ - ٢٠٤ .

بناتٌ لأمٍ قد حيينَ بروحِها^(١) دعاها الهوى من بعد كتم لبوحِها
فأقلامُها تهوي لخطِ بلوحِها فبالأمس كانت بعض أغصانِ دوحِها
فعادت إليها اليومَ من بعدُ عُودًا

ويا ربَّ حصنٍ في ذراها قد اعتلى أنارت بروجَ الأفق في مظهرِ العلا
بروجُ قصورٍ شيدتها متطولاً فأنشأت برجاً صاعداً متنزلاً
يكون رسولاً بينها متردداً

وهل هي إلا هالةٌ حول بدرها يصوغ لها حلياً يليق بنحرها
تطور أنوعاً تشيد بفخرها فحجلٌ برجليها وشاحٌ بخصرها
وناجٌ بأعلى رأسها قد تنضداً

أرادَ استراقَ السَّمْعِ وهو ممْنَعُ فقام بأذيالِ الدجى يتلفَعُ
وأصغى لأخبارِ السَّما يتسمَعُ فأتبعه منها ذوابلُ شرْعُ
لتقدفه بالرجمِ^(٢) مثنىً وموحدًا

وما هو إلا قائمٌ مدَّ كَفُّهُ ليسألَ من ربِّ السمواتِ لُطفَهُ
لمولى تولاه وأحكم رَصْفَهُ وكلَّفَ أربابَ البلاغةِ وَصفَهُ
وأكرمَ منه القانتَ المتهجداً

ملاقي ركبٍ من وفودِ النواسيمِ مقبلٌ ثغرٍ للبروقِ البواسيمِ
مختمٌ كفَّ بالنجومِ العواتمِ مبلِّغٌ قصيدٍ من حضورِ المواسيمِ
تجدده مهما صنيعٌ تجددًا

١ - في النفخ : قد حيينَ لروحِها .

٢ - في النفخ : بالرعب .

(٦)

أنشد أبو الحسين بن فركون^(١) السلطان يوسف الثالث قصيدة في سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م بمناسبة ولادة ابن للسلطان وإعذار أخوين لذلك المولود ، ومطلع القصيدة^(٢) :

سل البان عنها أين بانَّت ركايبها ولم رُفَعَتْ فوقَ المطيِّ قبايبها
ومن أبيات هذه القصيدة في وصف رياضة الطلبة^(٣) :

وصاعدة في الجوّ أَلقت ذيلها فراقَ بَآفاقِ السحابِ انسحابُها
تحنُّ إليها الذابلاتُ فترتمي فروعاً يرينا الأصل كيف اجتذابُها
إذا ثبَّت راقَ العيونَ ثباتُها أو انقلبت راقَ النفوسَ انقلابُها
كأنَّ طيوراً في ذرى الجوّ حومتْ وثابت لأوكار بهنّ وثابُها
تقيمُ إذا لاقى الأمانَ ارتياحُها وربّما عنها ثناها ارتياحُها
إذا أخطأ الخطيُّ يهديه خطُّها وما كان يَأبى أنْ يُصِيبَ صوابُها
إذا اعتمدت قوسُ السماءِ عمودها لرمي فسَهْمُ السَّعدِ يَدنيه قابُها

١ - أبو الحسين بن أحمد بن سليمان القرشي ، أصله من المرية ، وانتقل جده إلى غرناطة ، كان أبوه قاضياً فقيهاً وأديباً شاعراً . أدرك أبو الحسين مكانة كبيرة في عهد السلطان يوسف الثالث ملك غرناطة ؛ فكان كاتب سره وشاعر دولته ، ولد أبو الحسين حوالي سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م ، وارتسم في الكتابة سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، وتدرّج في المناصب حتى وفاة يوسف الثالث سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م . ولم تعرف تاريخ وفاة ابن فركون . (انظر تقديم الدكتور محمد بن شريفة لكتاب مظهر النور من جمع أبي الحسين بن فركون ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٩١ م ص ٥ - ١٢ ؛ وتقديم الدكتور محمد شريفة لديوان ابن فركون (ص ٧ - ١٩) .

٢ - ابن فركون ، أبو الحسين بن أحمد بن سليمان القرشي ، ديوان ابن فركون ، تقديم وتعليق محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ص (٣٣٨ - ٣٣٩) .

٣ - نفسه ص ٣٤٣ .

(٧)

من قصيدة لابن الحاج النميري^(١) ، مطلعها^(٢) :

أنتك وقد هزّ الدجى مضجع الفجر بكأسين من ريق يرود ومن خمر
يصف جانباً من إحدى احتفالات الغني بالله محمد الخامس ، قائلاً^(٣) :

وقد سعدت في الجو آية طلبة تحاكي عمود الفجر أسفر للسفر
وأنحوا عليها بالعصي كأنها بروق ولكن بالبروق غدت تزي
من الطبيلات اللاء ما زال كسرُها لدى البطل الأحمى يعدُّ من الجبر
وضاربها يوم الوفود عقوقه وإن كان لا يخفى يعدُّ من البر
فذلك منه للجهاد تدرب سيسقي به الحزب الذي دان بالكفر
وقد جال نفع الخيل في جنباتها كما جال في الأفكار معنى من الشعر

١ - أبو إسحق إبراهيم بن عبدالله بن محمد النميري ، يعرف بابن الحاج ، من أهل غرناطة ، ولد بها سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م ، شاعر وكاتب له عدة مؤلفات في الأدب والبلاغة والرحلات والمذاهب وعلم الحديث والأحكام ، وله رحلة سماها « فيض العباب وإجالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب » توجه رسولاً عن سلطانه الغني بالله إلى تلمسان ، فاعترض العدو السفينة التي كان بها ، فوقع أسيراً ، فافتداه سلطانه بسبعة آلاف من العين بعد أيام قلائل من أسره ، وذلك سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م . وكان قد ارتسم في كتاب الإنشاء سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م وخدم في بلاط أبي عنان المريني إلى حين وفاته .

(انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ١/ ٣٤٢ - ٣٦٣ ؛ الكتيبة الكامنة ٢٦٠ - ٢٦٩ ؛ ابن الأحمر ، نثر فرائد الجمال ٣١٣ - ٣١٨ ؛ المقرئ ، نفع الطيب ١٠٨/ ٧ - ١٢١ ؛ وانظر الدراسة التي قدم بها الدكتور محمد بن شقرون لكتاب فيض العباب لأبن الحاج ص ١ - ١٠٩ ، وقد نشر الكتاب في الرباط سنة ١٩٨٤ م) .

٢ - ابن الحاج النميري ، قرائن القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبدالله بن نصر ، مخطوط رقم Or. 5670 في المتحف البريطاني ، ص ٢٣ .

٣ - المصدر السابق ص ٢٤ - ٢٥ .

(٨)

من قصيدة لعبدالله بن لسان الدين بن الخطيب^(١) في إعدار ابن للسلطان محمد
ابن يوسف بن نصر الغني بالله محمد الخامس ، مطلعها^(٢) :

أثرها عزيمة تنفي الركابا وإن دمت لها العين انسكابا

يقول في بعض أبياتها في وصف الطلبة^(٣) :

وساقية العماد إذا أطلت إلى الأدواح تنساب أنسابا

تحسوم بها العصي فراش ليل تروم بسمعه منه اقترابا

تحف بها خيول القوم منا فترسل نحوها الجرد العرابا

عجائب أبدعت عليك فيها ومثلك يدع الأمر العجابا

١ - ولسد بغرناطة سنة ٧٤٣هـ ، وحدث عن أبيه لسان الدين بن الخطيب ، وعن ابن الجيآب ، وكتب بالعدوتين للملك الحضرتين (النصرية والمرينية) وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مديراً الدولة ، وكان شاعراً ، وقرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني والخطيب أبي سعيد فرج بن لبّ التعلبي (انظر : لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة (نصوص جديدة لم تنشر) ، تحقيق : د . عبدالسلام بن شقور ، تطوان ، المغرب ، ١٩٨٨ ، ص ١٢٣ - ١٣٢ ، المقرئ ، نفح الطيب ٢٨٩/٧ - ٢٩٩) .

٢ - ابن الخطيب ، الإحاطة (نصوص جديدة لم تنشر) ص ١٣٠ : المقرئ ، نفح الطيب ٢٩٧/٧ .

٣ - المصدران السابقان .